كيف نعلم الطفل الفشل ؟

تاريخ النشر في جريدة أخبار الخليج 30 أكتوبر 2016

بقلم: الدكتور زكريا خنجي

كلنا نريد أن ينجح أطفالنا، ولكن في الواقع فإننا – كلنا أو معظمنا – نمارس معهم شتى الطرق التي تؤدي بهم إلى الفشل، وكأننا نسير بهم ونأخذ بأيديهم للفشل في الدراسة والحياة وما إلى ذلك، هل هذا معقول ؟

وقد نعتبر ما نقوله مناف للعقل والواقع، فمن يريد أن يقضي على أطفاله بالفشل ؟

الحقيقة تقول أنه قد لا نشعر بما نفعله مع أطفالنا، فنحن قد نمارس معهم بعض السلوكيات البسيطة التي من الممكن أن تؤدي بهم إلى الاحباط وبالتالي تدميرهم، ربما من غير أن نشعر بذلك، ولكن ربما هي كلمة أو تصرف تهدم في نفس الطفل أركان البناء، وبالتالي قد يحتاج هذا الطفل إلى سنوات طويلة وتعامل خاص حتى يتشافا مما حدث.

وقد يقول قائل عندما كنا أطفالاً كان الوالدين يتعاملون معنا بالضرب والعصا، ولم يحدث فينا أي شرخ، فلماذا أطفال اليوم بهذه الهشاشة ؟ قد لا نستطيع هنا أن نرد على مثل هذا التساؤل ولكن يمكننا أن نقول أن أساليب التربية لم تتغير وإنما البشر هم الذين تغيرون، فما كان يصلح

في زمن الآباء والأجداد لا يصلح في عصر الانفتاح العالمي، فشباب اليوم لا يمكنك أن تلزمه بأمر إن لم يكن مقتنع به، فإن تمرد فلديه جميع وسائل الاتصال العالمي الذي يمكنه وهو جالس في المقهى أو غرفته أن يتسامر مع من يريد من غير أن تشعر به، لذلك فإنه مثل هذا الشاب أو تلك الفتاة تحتاج إلى عناية خاصة حتى يمكنك أن تقوده إلى الطريق القويم، ومن الطبيعي إن هذا الطريق القويم جملة مطاطية فكل إنسان يرى هذا الطريق حسب مفهومه هو.

وعموماً، بالعودة إلى موضوع سلوكياتنا نحن كآباء يمكننا أن نشاهد في حياتنا اليومية الكثير من تلك السلوكيات – وإن كانت بسيطة – إلا أنها قد تكون سبباً في تجريح الطفل وبالتالي فشله وضياعه، ولقد ذكرت أدبيات تربية الكثير من تلك السلوكيات، إلا إننا هنا سنحاول أن نستعرض عدد قليلاً من هذه السلوكيات، وهي:

أولاً: إجبار الطفل أن يفكر بطريقتنا؛ هذا الطفل لم يولد لعصرنا وإنما فهو امتداد بيولوجي لنا وليس صورة منا، فهو كيان خاص ووحدة بشرية متكاملة له حق الحياة بالطريقة التي يمكن أن يجدها مناسبة، لذلك فإنه يجب أن نتيح له الفرصة للتفكير واتخاذ القرارات المناسبة وخاصة في القضايا التي تمس حياته، ولكن هذا لا يعني أبداً أن نراه يحطم نفسه ونحن نسكت، فمثلاً إن اتخذ الطفل القرار ألا يذهب أبداً للمدرسة أو أن يتعاطاه المخدرات أو أن يصاحب أصحاب السوء فإن ذلك مدعاة لتدخلنا ولكن حتى ذلك بحذر واقناع وحوار، لنوضح له مساوئ عدم

الذهاب إلى المدرسة والعواقب التي يمكن أن تنعكس عليه إن تعاطى المخدرات، وما إلى ذلك.

يجب أن يشعر الطفل أنه يفكر وأنه المعني باتخاذ القرار الخاصة به، ويجب أن يحاول الكبار – سواء الأهل أو المدرسين – أن يتعلموا الصبر أثناء تربية الأطفال، وفي نفس الوقت فإن المطلوب من الكبار أن يكونوا متواجدين عندما يطلب منهم الطفل التدخل لحل أزمة ما، أو أن يكونوا متواجدين لكى يوجهوا الطفل نحو الحل، فما عليهم ألا يتدخلوا طالما الطفل لم يطلب المساعدة، أو إعطاء المساعدة أكثر مما يطلبها الطفل، وذلك لأن الطفل بالطبيعة يحب أن يجرب بنفسه إلى أن ينجح فيما يقوم به.

ثانياً: أزرع فيه الخوف؛ الخوف سمة بشرية تقبع في نفوسنا نحن الكبار ننقلها – بطريقة أو بأخرى – إلى نفوس الأطفال، إن لم نتمكن نحن من السيطرة عليها، فنحن نريد أن ينجح أطفالنا ونخاف من فشله، لذلك فإن الطفل يشعر بهذا الخوف، وبالتالي يخاف الطفل من الفشل، ومن أن يتسبب في خيبة أمل كل الكبار من حوله الذين وضعوا أمالهم فيه، وجعلوا من توقعاتهم وطموحاتهم لأطفالهم بمثابة قيد حول رقابهم.

إننا نحاول دائماً أن نرفع من سقف توقعاتنا لأطفالنا، دون أن نسأل أنفسنا إن كانوا تعلموا شيئًا حقيقياً، وإن كانوا أضافوا إلى ثقافتهم المعرفة اللازمة، وعندما لا يحصل الطفل على الدرجة المتوقعة منه، يشعر بالخوف من زملائه ومن مدرسيه ومن أهله لأنه يعرف أنه قد

يتعرض منهم للإهانة، والضرب. ومن ناحية أخرى فإننا نجد أن معظم المدرسين ومعظم الأهل يؤمنون أنه من خلال إثارة الخوف والتهديد بالعقاب لدى الطفل يستطيعون التحكم فيه وفرض سيطرتهم، فهم يفضلون نظاماً يقوم على التخويف لفرض الهدوء عن التعاون مع الطفل لتحقيق نفس الشيء.

ثالثًا: أضرب؛ الضرب مطلوب، وليس الضرب تحديداً وإنما العقاب غير المبرح والذي لا يتسبب في إهانته والمس بكرامته، فنحن يجب أن لا نهين الطفل بالشتم والتهديد والقسوة والفضيحة بين أقرانه وأهله، وإن كنا نريد أن نعاقبه فإنه يجب أن يتم ذلك بيننا وبينه، ولكن يجب أن يعرف الطفل لماذا عوقب، ولماذا رفض طلبه، ولماذا ضرب إن ضرب.

كما يجب أن نستوعب – نحن كآباء – لماذا يجب أن نضرب، ومتى يجب أن نضربه، فلا نعتبر إن أسلوب الضرب هي الوسيلة الوحيدة لتربية الطفل، وإنما يجب أن تكون آخر علاج، حيث يجب أن نبدأ بالتوجيه واستخدام العديد من أساليب التربية، ولكن إن تكرر منه الخطأ والعناد وذلك السلوك غير المطلوب عدة مرات، عندئذ يمكن أن نستخدم أسلوب الضرب، ولكن في حدود القواعد والضوابط الذي وضعها العديد من العلماء وعلى رأسهم ابو حامد الغزالي، والتي منها:

1. **قد تم استخدام وممارسة كل الطرق مع الطفل، ولكن بقي معانداً، ورافضًا لأي تغيير.**

2. **أن يكون عمر الطفل عشرة أو ما فوق؛ فالصغير غير العاقل لا يُضرَب.**
3. **أن لا يكون مكرراً بحيث يفقد فعاليته وهيبته.**
4. **أن لا يكون للتشفي والانتقام وتفريغ شحنات غضب الأهل.**
5. **أن لا يتعدّى عدد ثلاث ضربات.**
6. **أن لا يكون بآلة حادة تشق الجلد.**
7. **أن لا يرفع المؤدب آلة الضرب فوق إبطه حتى لا تكون الضربة قوية تسبِّب الألم المبرِح.**
8. **أن لا يكون في محل واحد.**
9. **أن يكون هناك زمن بين الضربتين فلا تكون الضربة الثانية حتى يخفّ ألم الضربة الأولى.**
10. **أن يتقي الضارب الوجه والفرج والرأس، ويُفضل على الكفين والرجلين فقط.**
11. **أن يتوقف المؤدِّب عن الضرب إذا ذكر الطفل رب العزّة سبحانه وتعالى.**

رابعًا: أشعره أن التفوق والنجاح هو التفوق المدرسي فقط؛ فنحن نريد من الطفل أن يحصل على أعلى الدرجات، سواء كان في الروضة أو في الجامعة، وكأن الطفل لا يمكن أن يعيش النجاح إلا إذا نجح في المدرسة فقط، ونسينا أو تناسينا أن النبوغ والإبداع يمكن أن يبرز بصورة أكبر خارج حدود المدرسة، فالمدارس لا تنمي العقول المبدعة وإنما بصورة عامة

تنمي الحفظ والقدرة على النجاح في الاختبارات فقط، حتى أصبح المجتمع لا يفكر إلا في النجاح المدرسي فقط، وأي أمر خلاف ذلك فإنه مرفوض.

لذلك فإننا نرى أن كل المناهج وكل وزارات التربية والتعليم في جميع الدول العربية لا تفكر إلا في وضع المناهج التي تلقن الطالب المواد العلمية التي تؤهله للاختبار وتحصيل الشهادة فقط، بهدف أن يتمكن من العمل في وظيفة مرموقة.

ولم نرى في أي دولة عربية مناهج في التفكير الإبداعي، لم نرى في أي دولة عربية مناهج لتعليم الطفل فن الاختراع وابتكار الأشياء وتفكيك الأجهزة والمعدات وإعادة بناءها، على الرغم من أن المناهج فيها الغث أكثر من السمين.

كل الذي نريده من الطفل أن يحفظ الكتاب، ويفرغه في كراسة الاختبار، كما حفظ.

خامساً: أكذب عليه قدر ما تستطيع؛ الطفل خامة جميلة وناعمة، فهو يتشكل كيفما تريد، فيمكنك أن تكذب عليه كما تريد، فإن سألك عن شيء وحتى إن كانت إجابته سهلة فيمكنك بدلاً من الرد عليه وتوضيح الأمر بسهولة ويسر، أن تكذب عليه، فهو بذلك يتعلم أن الكذب أمر مباح وخاصة إن وجد أن والديه وأخوته يكذبون عليه وعلى غيره.

فإن قال مثلاً أنه يريد أن يشتري من السوبرماركت بعض الحلويات فأكذب عليه، وقل له أنك لا تملك النقود، ولا تشرح له أضرار الحلويات،

وكلها لحظات وسوف يشاهدك تُخرج بعض النقود لشراء بضاعة أخرى، فماذا ستكون أنت في نظره ؟ إنه ببساطة سوف يقلدك، فأنت القدوة.

سادساً: دلل إلى حد التملك؛ كما أن الضرب والعقاب المعتدل مطلوب فإن التدليل المعتدل أيضاً مطلوب، فالتدليل هم نوع من الحب والألفة بين الوالدين والأبناء، ولكن أن ندلل أطفالنا إلى الحد أن لا نترك لهم فرصة لاتخاذ قراراتهم بأنفسهم، أو أن نتركهم لحل مشاكلهم البسيطة بأنفسهم، فإن ذلك تعد من قبيل الكارثة، وهذا ما يعرف من الحب ما قتل.

هناك الكثير من الأسر تحول حب الأبناء إلى تملك الأبناء، فهم يحبونهم ويحبونهم إلى درجة أنهم يشعرون الطفل أن غير حر في تصرفاته، حيث أنهم يتدخلون في حياته وفي كل صغيرة وكبيرة، فلا يجعلونه يقع في الخطأ حتى يتعلم، ولا يتركون له الفرصة للتعرف على الفشل والحياة وما إلى ذلك، لتصبح حياته كلها ملك لوالديه، وحتى الأكل والشرب لا يستطيع القيام به إلا برغباتهم، وكذلك اختيار الملابس، وبالتالي اختيار الزوجة، وممارسة حياته الشخصية، كلها تصبح رهينة بين يدي الوالدين. ترى كيف سيكون هذا الطفل في المستقبل ؟

عموماً، هذه خطوات ست، يمكننا كأولياء أمور وكآباء أن نفرضها على أبناء حتى نعلمهم الفشل، وبالتالي نبكي عليهم لأنهم فشلوا، ومن الطبيعي هناك أساليب وطرق كثيرة، يمكن التحدث فيها مستقبلاً.